حياته . . . وتنقلاته

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقى سرور

— ٤ —

الحلاج يستعرض المنهج والرسالة

آمن الحلاج وهو يشق طريقه إلى الله ، على اجنحة من رياضاته العنيفة الشاقة ، وأشواقه القلبية المتقدة ، أن هناك صلات لا تنفصم بين الكمال الروحى الذى ينشده ، والاصلاح الإيمانى الذى يستهدفه .

إنه ليحس بأن فى أعماقه قوى ضخمة تفور وتتصارع وتتهيأ للحركة والوثوب .

ويشعر بان هناك فى أبعد عمق من نفسه وقلبه ووجدانه ، تتفجر ينابيع ، وتتدفق تيارات وثورات ، يرى بعين خياله ، وبصيرة أحلامه ، أنها ستغير وجه الحياة . حياته . وحياة الناس كافة ؟!!

لقد آن للعالم الإسلامى أن يبعث من جديد ، على نور من كتاب الله وحبه ، وشعاع من حياة الرسول وهديه .

وما أروع وأجمل أن تتحقق أحلام الحلاج ، فتشهد الدنيا أمة قرآنية تقوم بعين الله ورعايته ، يحكمها ويوجهها أقطاب عباد أتقياء أصفياء ، يحبون الله ويحبهم ، ويملؤن الكون

بمواجيدهم وضراعاتهم وأنوار إلهاماتهم .

ويحملون الناس على الجادة والطريق الذى اصطفاه الله وارتضاه ، فلا تفترق السياسة عن الصلاة ، ولا الحكم عن الحب ، ولا العمل عن العبادة . . فتتحول الدنيا من غابة للشهوات والصراع ولهو الشياطين ، إلى مساجد للحب والسلام ونجوى الساجدين العابدين .

إنها أحلام الحلاج ، التى تملأ عليه آفاقه ، والتى تعيش فى أعماقه ، وتبعث الحركة والاضطراب فى حياته ، ترى هل هو أهلا لها ؟ وهل يستطيع النهوض بها ، فتتحول الأحلام والأمانى ، إلى حقائق حية ، تسعى وتعيش وتخلد ؟

وهل يستطيع الصوفية ، وهل يستطيع المنهج الصوفى ، أن يقدم له القاعدة الصلبة التى يرتكز عليها ، ويثب من فوقها ؟

لقد جاهد الصوفية أنفسهم فى سبيل التصفية والتحلية والتطهر ، جهادا خالدا لم تعرف صحف الجهاد النفسى مثيلا له من قبل .

وفرضوا على أنفسهم مناهج فى السلوك ، وآدابا فى الطريق ، وواجبات فى العبادات ، واخلاقا فى الحياة ، هى أسمى تصورات الكمال التى عرفها هذا الوجود .

وامتلأت أيديهم بثروة ضخمة من التجربة العملية الكاملة التى قاموا بها وحدهم ، وهم يصعدون معارج الوصول إلى أفق الحب الإلهى ، وسموات الإلهام والنجوى .

وتركوا للانسانية زادا صالحا من معارفهم وإلهاماتهم ، وعطرا زكيا من أورادهم وعباداتهم ، وسيرا وصحفا لهم تشع هدى ، وترسل نورا ، وتهدى طريقا

ثم عاش الصوفية بعد ذلك حياتهم داخل أنفسهم ، أو داخل حلقات دروسهم ، وساحات مريديهم ، ولم يمدوا أعينهم إلى ساحة الحياة الكبرى ، وإلى ميادين جهادها الأخرى .

ولقد آمن الحلاج ، بان المنهج الصوفى بكمالاته فى الأخلاق والعبادات والجهاد الروحى ، وبمواجيده وأذواقه ومعارفه فى الحب الإلهى ، إنما يمثل وجها واحدا من الدعوة الإسلامية ، ووجها واحدا من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؛ انه يمثل

مرحلة الأعداد فحسب ، ثم تاقى فى أعقابها مرحلة الكمال . مرحلة الجهاد العام لتبليغ الدعوة ، وحمل الناس عليها ، والدفاع عنها ، فلو أكتفى الأنبياء والأولياء ، والمصلحون والزعماء ، بأنفسهم ولم يحملوا ماتلقوا وما تعلموا وما آمنوا به إلى الناس ، ولم يجاهدوا فى سبيله حتى تعلو كلمات الله ، وتسود تعاليمه ورسالاته ، لفسدت الأرض ، وامتطاها شياطين الجن والإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .

ولقد فسد عصر الحلاج فسادا كبيرا ، وتنابذ الناس واختلفوا وتفرقت بهم السبل ، وأغرقوا فى الشهوات والملذات والترف الهلوك .

وكانت قمة الفساد قصور الخلفاء والأمراء ؛ فقد غدت مسرحا لعبث الجوارى والإماء ، ومرتعا للمرتشين والمغامرين والملحدين ؟

ومع هذا فها هى بغداد عاصمة الخلافة تموج بالنجوم الكبار من أعلام التصوف وأئمته . الجنيد ، والتسترى ؛ والمكى ، والشبلى ، والنورى .

وها هو العراق فى كل سهل وجبل وقرية فيه ، صوفية عباد أتقياء أصفياء لهم مكانتهم وأقدارهم .

إن سهل بن عبد الله التسترى ليقول : إنه دخل « البصرة » فوجد بها أربعة آلاف من العارفين ؟

البصرة وحدها يعيش بها هذا العدد الضخم من العارفين ؛ الواصلين . فكم منهم فى بغداد ؟ وفى كل مدينة من مدن العراق ؟

ومع هذا فبغداد والعراق قد أصبحا علما عالميا على التدهور الخلقى ؛ والانحلال الدينى ؛ والفساد الاجتماعى .

ماذا فعل الصوفية حيال كل هذا . ولهم المكانة ولهم الجاه . ولهم الحب والتقدير عند الخاصة ، والسلطان الشامخ على العامة .

لقد فكر الحلاج فى كل هذا وأطال التفكير ، فلم يرض عنه ، ولم يطمئن اليه ، وعبر عن سخطه بكلمات من لهيب وبرق .

إن الله سبحانه كما يقول الحلاج : لن يقبل من الناس عبادتهم ، إذا اختلت سياستهم ، وفسدت أخلاقهم ، ثم استكانوا للبغى والفساد .

وإن الله سبحانه كما يقول الحلاج : لن يقبل من أصحاب الأوراد

والأكسية ، دندناتهم وكلماتهم مالم ينهضوا للحق ، ويجهروا به ، ويقدموا دماءهم فى ساحة الاستشهاد والفداء .

وقد آن لرجل من رجال الله أن يرفع صوته ، ويؤذن بالدعوة ، وإن الحلاج ليهب نفسه ويرصدها للغاية الكبرى .

وإن كان يمسك نفسه حينا ، ويقلب وجوه الرأى أحيانا فليس عن تردد أو ضعف ، إنه يريد أن يستوثق من نفسه ، وأن يطمئن إلى عدته ، هل كملت رياضاته ، وهل نضجت مجاهداته ، وهل خلص له قلبه ؟ إن قلبه لينازع عقله فيما يريد ، وإن وجدانه ليصاول تفكيره فيما يحب .

لقد تعشق بقلبه ووجدانه وروحه المنهج الصوفى ، ورصد كل قواه منذ صباه لحب الله وعبادته والجهاد فى مرضاته ؛ حتى يصل إلى فناء كامل ، تفنى فيه إرادته فى إرادة الله ، ونوازع بشريته ، فى كمالات عبادته ، وأهواء نفسه فى لذة إنسه ، وجلال قربه .

وإن هذا الجلال ، وهذا الحب ، وهذا الفناء ، ليكاد يمزقه عن نفسه ، وعن رسالته حينا ، وحينا يخيل إليه أنهما ارتبطا واتحدا ، واصبحا شيئا واحدا .

إنها عاصفة من التفكير المزلزل المتعدد الألوان والصور ، خلص له منها أمراً يقينيا اطمئن إليه اطمئنانا لم يجده عند سواه .

إنه فى حاجة إلى خلوة كاملة ، يعيشها متحنثا متطهرا ذاكرا قانتا ، خلوة تؤهله أو تدنيه من الكمال . وتزوده وتعده للجهاد العنيف الشاق الذى اعتزم القيام به فى وجه جميع القوى .

ومن ثم اعتزم الحلاج أن يرحل إلى بيت الله المقدس ليخلو بنفسه فى أرض الوحى والإلهام ، ليزداد قربا من ربه ، وكمالا فى نفسه ، وهما عدته ومعراجه إلى هدفه .

الحلاج فى بيت الله :

وفارق الحلاج بغداد فجأة إلى مكة المكرمة ، وبعد أن طوف بالبيت العتيق ، وامتلأت عيناه بالمشاهد التى شهدت خطو الملائكة وجهاد خاتم النبيين ، نذر البقاء عاما للعمرة فى حزم البيت المبارك للتطهر والنسك ، والتصفية القلبية ، والاعداد الروحى .

عاش الحلاج فى مكة عاما كاملا فى صمت مطلق ، وتأمل متصل ، وعبادة ونجوى ، عاش فى — الحجر — لا يستظل تحت سقف شتاء ولا صيفا .

عن أبى يعقوب النهر جورى قال : «(١) دخل الحلاج مكة أول

(١) ص٢٦ - ٢٧ . أخبار الحلاج لعلى بن أنجب الساعى .

دخلة وجلس فى صحن المسجد سنة لم يبرح من موضعه إلا للطهارة والطواف ولم يحترز من الشمس ولا من المطر وكان يحمل إليه فى كل عشية ، كوز ماء ، وقرص من أقراص مكة .

وكان عند الصباح يرى القرص على رأس اللوز ، وقد عض منه ثلاث عضات أو أربعا فيحمل من عنده ،

عاش الحلاج حياته العجيبة القاسية الشاقة عاما كاملا ، ماهى خواطره ؟ وما هى تأملاته ؟ وما هى القوة التى تزود بها فى خلوته ؟

لقد لزمت كتب التاريخ الصمت حيال هذه الفترة من حياته ، إلا أن المستشرق « ماسنيون » يحاول كعادته أن يلقى الظلال والشبهات ، وأن يفسر حياة الحلاج التفسير الذى يصل به إلى الفكرة التى استقرت عنده . ، وهى أن الحلاج كان يحاول أن ينهج نهجا مسيحيا فى تنسكه ودعوته وانه كان يتشبه بمريم البتول حينا ، وبالسيد المسيح أحيانا .

يقول ماسنيون : « إن الحلاج فى مكة كان يتشبه بمريم ابنت عمران . وإنه كان يهيء نفسه استعداداً لميلاد كلمة الله فيه :

إن تأملات الحلاج وأحلامه ، وخواطره ورياضته بمكة ، تصورها لنا أولى كلماته التى نطق بها بعد عام كامل من صمته ، لقد خرج الحلاج من عزلته فتلقاه اتباعه يسألونه عن شأنه ؟ فترجم عن أمره بتلك الجملة القصيرة المعبرة المصورة ، قال الحلاج : « لو ألقى ما فى قلبى ذرة على الجبال لذابت » إنه ثائر أو عابد من لون جديد ، تلاقت فى أثوابه خرقة الصوفية بكسوة الجندية وامتزجت فى قلبه أشواق الحب الالهى بثورة الاصلاح السياسى ، واجتمعت فى روحه طهارة العابدين ورقتهم ، ببطولات المصلحين وصلابتهم ، وكانت هذه الأمشاج من الصفات المتناقضة ، تعلوها صفة ثابتة تعطى الحلاج طابعه الدائم .

ذلك هو الوجد الصوفى الذى كان يأخذه أخذاً عنيفاً ملحا ، يفنى فيه عن نفسه حينا ، وعن رسالته أحيانا ويدفع به زمنا إلى الخلوة القاسية والهرب من الناس ، أو يزج به قسرا فى تيار الحياة ومعاركها .

ذلك الوجد الصوفى الذى سيبلغ قمته فى سنواته الأخيرة ، بل ذلك الوجد الذى سيترك بصماته على تاريخ الحلاج فيملأه غموضا واضطرابا ، ويضفى عليه فتنة وخيالا ساحرا .

تنقلات الحلاج فى العالم الاسلامى :

غادر الحلاج مكة إلى الأهواز ؛ ومعركته الباطنية لا تزال مشتعلة ، رغم السلام الظاهرى الذى اكتسبه من رياضاته وخلوته . لقد رسم فى عزلته خطوطا وتزود بقوى واعتزم أن يدفع بنفسه إلى ساحة الكفاح .

خرج داعيا إلى الله ، مبشرا برسالته ، وأتجه بدعوته إلى طبقة المثقفين من الكتاب ورجال الأعمال وإلى الجنود والقواد ، وجماهير الصوفية .

وقسم الحلاج منهجه إلى خطوط رئيسية : ناحية دينية صوفية جوهرها عبادة الله وحبه ، حبا أساسه الوجد والشوق ، حتى يجد الإنسان ربه فى أعماق نفسه ، وبذلك يصل إلى الكمال الروحى والخلقى .

وإصلاح الأداة الحكومية الغارقة فى الترف والشهوات والانحراف ، حتى يستقيم الميزان الموجه لحياة الناس .

ووحدة الأمة الإسلامية التى مزقتها الفلسفات والعصبيات حتى تستطيع أن تنهض برسالتها ، وتتجمع لديها القوة اللازمة لحمايتها ،

وكان الحلاج فى دعوته يتجنب التسميات المميزة بين الفرق الدينية حتى لا يظن به الجنوح إلى فرقة بذاتها . وهى العقبة الكبرى فى وجه كل دعاة الإصلاح .

وكانت صيحة الحلاج المدوية أن يعود الناس إلى الأساس الأول، إلى الإسلام كما جاء ، محجة بيضاء وكما طبق فى عهد الرسول توحيدا صافيا ، وعملا لله خالصا ، وأن يتخلى الناس عن هذه المذاهب التى حجبتهم عن الجوهر ، فالمذاهب كما يقول . إن هى إلا وسائط يجب اجتيازها إلى روح الإسلام :

يقول العلامة ابن كثير فى البداية والنهاية : « وكان الحلاج فى عبارته حلو المنطق ، فيه تعبد وتأله وسلوك »

وغضب المتزمتون من رجال التصوف لاندفاع الحلاج فى التيار السياسى ، وقابل الحلاج غضبتهم بأعنف منها ، فنبذ خرقة التصوف كيما يتكلم بحرية مع أبناء الدنيا كما يقول .

وعظم أمر الحلاج فى الأهواز وفتنت به الجماهير . ونسبت اليه العجائب ، وتلونت هذه العجائب بخيال العامة حتى غدت ضربا خارقا لقدرة الإنسان ! ! ؟

وكان الحلاج كما يقول

« الاسطخرى » باهر الشخصية ، ساحر الكلمة . رائع السمت ، محببا إلى القلوب : أو كما يقول العلم الحديث : فيه استهواء روحى للجماهير ،

ثم وسع الحلاج نطاق دعوته فارتحل إلى خراسان وفى صحبته العشرات من الحواريين . واستمر كما يقول - ماسنيون - (١) - يدعو ويعظ الجاليات العربية فى شرق ايران ، ويبث دعوته فى المدن ويقيم على الحدود ، ويرابط مع المرابطين فى الثغور وقضى فى ذلك خمس سنوات .

ثم يعود إلى الأهواز ، بعد أن ترك دويا يتردد صداه فى آفاق خراسان ثم يدعوه تلميذه العظيم الواسع النفوذ - حمد القنائى - إلى الإقامة ببغداد ، فيرحل اليها مع أهله وطائفة كبيرة من مريديه وأتباعه .

ويدخل الحلاج بغداد ، بعد أن سبقته شهرته وعجائبه فيحدث فى بغداد هزة ، يتردد صداها فى البيئات الصوفية والعلمية ، ترددها فى قصور بغداد العالية ، وأكواخها الساذجة ،

ثم يذهب الحلاج إلى مكة للمرة الثانية مع أربعمائة من تلاميذه . ويعاود الاختلاء والرياضة حتى يتهمه بعض خصومه بأنه يقوم بأعمال السحر وتحضير الجن ، لاعتصامه بقمة جبل « أبى قبيس » وانقطاعه عن الناس .

ومن مكة يخرج الحلاج رحلته الكبرى فى سبيل الدعوة ، يخرج إلى التركستان والهند حيث يعتنق الإسلام على يديه خلق عظيم .

واتخذ البحر طريقا ، وصعد فى نهر السند من « ملتان » إلى كشمير ويمضى فى طريقه صاعدا ناحية الشمال الشرقى حتى « طرقان » مع القوافل الاهوازية . لقد كان الحلاج كما يقول « ماسنيون » يفكر فى هداية الإنسانية كلها عبر الأمة الإسلامية .

وعظم أمر الحلاج فى بلاد ماوراء النهر والهند والصين فكانوا يكاتبونه(٢) من الهند بلقب

---

(١) شخصيات قلقلة فى الإسلام

(٢) البداية النهاية لابن كثير

«المغيث» ومن بلاد الترك «بالمقيت» ومن خراسان «بابى عبد الله الزاهد» ومن خورستان «بالشيخ حلاج الأسرار» وسماه أشياعه ببغداد «بالمصطلم» وسموه فى البصرة «المحير» وذهبت الدنيا تردد احاديثه وقواه السحرية الخارقة، أو كراماته الباهرة.

يقول صاحب شذرات الذهب(١) «وبلغ من شأنه أن كان يخرج الاطعمة فى غير وقتها، والدراهم من الهواء، ويسميها «دراهم القدرة» وكان يعرف الكيمياء والطب.

ونشر الحلاج رسائله الكبرى عن السياسة وواجبات الوزراء مطالبا باقامة حكومة إسلامية حقا. وزارة تحكم بالعدل بين الناس، وخلافة كما يقول: «شاعرة بمسئوليات وظيفتها أمام الله، مما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم(٢)».

ومن وراء النهر عاد الحلاج إلى مكة، يدفعه وجد صوفى، وحنين غلاب إلى الخلوة، وإلى رياضاته العنيفة القاسية، فى أرض النبوة والإلهام، وليتزود فى عزلته الروحية، بقوة إيمانية، قوة تؤهله لمواجهة الحياة فى معركة بطولية حاسمة.

هناك فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية، حيث الصراع الفكرى والدينى مشتعل الأوار فى البيئات العلمية، وحيث الترف والشهوات والفساد يخنق المجتمع الإسلامى.

هناك معركة الحلاج الكبرى التى سيقدم روحه قربانا لها، . . وإلى بغداد يعود الحلاج، ليشعل فيها كل شىء، وليحترق فى أتونها؟

البحث مستمر

طه عبد الباقى سرور

---

(١) ج ٢ ص ٢٥٤

(٢) شخصيات قلقه فى الإسلام